الفصل الخامس

العصا

«لا يهون علي ضرب ابني لأني أحبه جدا»

راقبت طفلاً سيىء الخلق يداوم على التبرُّم والشكوى. كانت والدته تحاول دون جدوى حمله على طاعة أمر بسيط. كان بائساً، دائم الشكوى و«الزّنّ»، ولا يكف عن الغضب. وطبعاً بسبب الألاعيب القديمة لهذا الطاغية الصغير، تنكّدت الأم وثارت عليه. ومع ذلك استمرت «تتحايل عليه».

وباعتباري مراقباً موضوعياً، تهمني مصلحة الطفل وخيره، قلت للأم: «لماذا لا تعطيه «علقة» لعل هذا يفرحه؟» فأجابت الأم مصدومةً: «لا، إنها مرحلة عابرة، ولسوف يجتازها لا محالة».

لو كانت تصدق فعلاً أن تلك مرحلة طبيعية لا مفر منها (وأن ابنها الصغير غير مسؤول عن تصرفاته فيها)، فلماذا إذا تسخط عليه أحياناً وتطالبه بتغيير مسلكه؟ والحقيقة هي أنّ الأم، على الرغم من تبريرها الفلسفي، تلومه في قلبها، بينما تعذره في الظاهر وتترقّب بفارغ الصبر انقضاء تلك «المرحلة». فهي في قرارة نفسها تعلم أنّه ينبغي -بل ويستطيع- أن يغيّر مسلكه. وقد ساعد على ازدياد سوء مسلكه، النقد والرفض، الذي يحصل عليهما من والدته التي تستنكر سلوكه، ومن المجتمع ككل.

لقد تقدم بنا الحديث الآن إلى مرحلة يصح عندها الحديث عن استعمال العصا. دعونا نتحدث عن التأديب بالعصا، وهو ما اعتدنا تسميته «العلقة». «مَنْ يَمْنَعُ عَصَاهُ يَمْقُتِ ابْنَهُ، وَمَنْ أَحَبَّهُ يَطْلُبُ لَهُ التَّأْدِيبَ» (أمثال ١٣: ٢٤). يبدو هذا مخالفاً لما يشعر به الكثيرون من الآباء والمربين. إن الآية السابقة تعلن بوضوح أن عدم استعمال العصا إنما يرجع إلى كراهية الأب لطفله. مع ذلك ردّت تلك الأم: «لا! لا يهون عليّ ضرب ابني لأني أحبه جداً». إن الأب الذي يرد هكذا لا يفهم: ١) سلطان كلمة الله، ٢) طبيعة المحبة، ٣) مشاعره الخاصة، ٤) طبيعة الله، و٥) احتياجات الطفل.

١ - فهم سلطان كلمة الله

إنّ الإله الحكيم الذي قال: «دَعُوا الأَوْلاَدَ يَأْتُونَ إِلَيَّ وَلاَ تَمْنَعُوهُمْ، لأَنَّ لِمِثْلِ هؤُلاَءِ مَلَكُوتَ اللهِ» (مرقس ١٠: ١٤)، أيضاً قال:

«أَدِّبِ ابْنَكَ لأَنَّ فِيهِ رَجَاءً، وَلكِنْ عَلَى إِمَاتَتِهِ لاَ تَحْمِلْ نَفْسَكَ» (أمثال ١٩: ١٨).

«مَنْ يَمْنَعُ عَصَاهُ يَمْقُتِ ابْنَهُ، وَمَنْ أَحَبَّهُ يَطْلُبُ لَهُ التَّأْدِيبَ» (أمثال ١٣: ٢٤).

«اَلْجَهَالَةُ مُرْتَبِطَةٌ بِقَلْبِ الْوَلَدِ. عَصَا التَّأْدِيبِ تُبْعِدُهَا عَنْهُ» (أمثال ٢٢: ١٥).

«لاَ تَمْنَعِ التَّأْدِيبَ عَنِ الْوَلَدِ، لأَنَّكَ إِنْ ضَرَبْتَهُ بِعَصًا لاَ يَمُوتُ. تَضْرِبُهُ أَنْتَ بِعَصًا فَتُنْقِذُ نَفْسَهُ مِنَ الْهَاوِيَةِ» (أمثال ٢٣: ١٣-١٤).

«اَلْعَصَا وَالتَّوْبِيخُ يُعْطِيَانِ حِكْمَةً، وَالصَّبِيُّ الْمُطْلَقُ إِلَى هَوَاهُ يُخْجِلُ أُمَّهُ» (أمثال ٢٩: ١٥).

«أَدِّبِ ابْنَكَ فَيُرِيحَكَ وَيُعْطِيَ نَفْسَكَ لَذَّاتٍ» (أمثال ٢٩: ١٧).

٢ - فهم طبيعة المحبة

لعلك تحت تأثير مشاعر قوية تمنعك من صفع ولدك، لكنها ليست مشاعر المحبة. هذا بأن الله الذي خلق الأطفال الصغار، ومن ثمّ يعلم الأصلح لهم، أمر الوالدين باستعمال العصا في تدريبهم. أمّا الامتناع عن ذلك، بادعاء المحبة، فهو اتهام لله ذاته، لأن أعمالك تفترض إمّا أن الله لا يريد الأفضل لطفلك، أو أنّ علمك يفوق علمه.

أيّها الوالد، يعوزك أن تعرف الفرق بين المحبة الحقيقية والعواطف. العواطف البشرية الطبيعية –التي كثيراً ما تُفسّر خطأً على أنّها محبة– يمكن أن تضر إذا لم تخضع للحكمة. أقصد أن المحبة ليست المشاعر العميقة التي نحس بها تختلج في وجداننا نحو القريبين منا. هذه المشاعر والأحاسيس قد تخدم المصلحة الذاتية – بل هي كذلك بالفعل.

المحبة ليست عاطفة على الإطلاق. المحبة في أنقى معانيها هي حسن النية والعمل نحو الغير. المحبة الحقيقية لا تخدم مصلحة ما. أي لا يداخلها التفكير في عائد أو مقابل، أو حتى الخسارة التي قد يتكبّدها المُحِبّ في سبيل محبته.

٣ - فهم مشاعر الإنسان الخاصة

تبحث الأم الضعيفة عاطفياً في كثير من الأوقات عن اعتماد طفلها عليها وتعلّقه بها لإشباع احتياجها الشخصي. وهذا الاحتياج العميق يُسدَّد من خلال هيامها بالطفل وتلبية جميع رغباته. إنّها تقدّس هذه العاطفة الجارفة نحو الطفل، التي تحسبها خطأً محبة، وتتجنّب تعريضها للخطر. وتَزَعزُعها هذا لا يجعلها تفكّر إلا فيما قد تخسره بتأديبها الطفل. فهي تخشى أن تفعل أي شيء من شأنه أن يجعل الأطفال يرفضونها. إذا كان الحال هكذا، فهي لا تحب أطفالها، بل ذاتها، وتُبدِّي مشاعرها على احتياجات الأطفال.

نظرة الإحساس بالخيانة في عينيه الصغيرتين تثير فيها «الحنان» فتكسر قلبها بالألم. وهي لا تحتمل الألم الذي يسببه تدريب ولدها طاعةً لأمر الله. وبسبب خوفها من الألم العاطفي الشخصي، تهمل العصا. لكن «مَنْ يَمْنَعُ عَصَاهُ يَمْقُتِ ابْنَهُ، وَمَنْ أَحَبَّهُ يَطْلُبُ لَهُ التَّأْدِيبَ» (أمثال ١٣: ٢٤).

بسبب احتياجها الخاص، تخضع لاعتقاد ساذج بأن طفلها «الحلو» سوف يتخلّص من سوء أخلاقه حينما يكبر، فيكون شخصاً رائعاً. وهي تفكر: «لنمنحه المزيد من الوقت. إنه لا يفهم بعد!».

المحبة الحقيقية الوحيدة هي وضع مشاعرك الخاصة جانباً بغرض التفكير بموضوعية في مصلحة الطفل. مثلاً، إذا خنقت أُم طفلاً من كثرة التقبيل والعناق، فهي لا تحبه.

كذلك قد يجعلها الغضب لا تثق في دوافعها من معاقبته عقاباً جسدياً. إذا كان الأمر كذلك، فلتطالع الفصل الثالث «الغضب الأبوي». بالإضافة إلى ذلك، قد يعود هذا الشك في العصا إلى ما تذكره عن أبيها المتعسّف غير المنطقي. ولعلها أقسمت: «إني لن أكون مثل أبي، ولسوف أحب أولادي، فلا يخافونني كما كنت أخاف أنا من أبي». إنّ أباها لم يؤذها هي فقط، بل هو الآن يؤذي أولادها إذ جعلها تتخذ التطرّف المعاكس كرد فعل لها.

أحياناً ينقبض قلب الأم بفعل صور من الماضي كلما أدّب زوجها أولادها. هذا بأن الأمهات اللاتي اعتدن على ربط الغضب بالتأديب، يرون الغضب هو الدافع وراء كل محاولة تأديب. والطفل -بطبيعة الحال- يلاحظ تحفّظ الأم، فينوح لها كلما حاول الأب تأديبه. وهكذا يُنقِص عدم ارتياحها بتأديب الأب من تأثيره ويخلق في الطفل المراوغة والتلاعب. الوقت الآن قد حان لتتوقفي عن التأثر بالماضي، وتتصرفي حسبما يمليه عليك الله والعقل الراجح.

وقد يهمل بعض الآباء استعمال العصا بسبب ضغط أقرانهم. فقد يكونان مثلاً على خلاف مع والديهما بشأن تدريب الأطفال. ولا عجب في ذلك، لأن الوالدين المعاصرين يتعرّضان لهجوم شرس من الدعاية، التي تدّعي إنها تستند إلى أحدث الأبحاث النفسية، وهذه الأبحاث تُندِّد بأساليب تربية الأطفال المؤسسة على الكتاب

المقدس. لذلك يخجل الوالدان، ولا يوقعان التأديب إلا بعد التأكد من عدم وجود أحد يراقبهما.

٤ - طبيعة الله

إنّ الأب الذي يلتمس لنفسه العذر في عدم استعمال العصا، بحجة أنّه يحب الطفل محبة شديدة، لا يفهم ولا يعي طبيعة الله وأساليبه نحو شعبه.

هناك نمط تفكيري تسلل إلى أفكار المسيحيين، مفاده: «بما أن الله محبة، فهو لا يميّز أحداً عن أحد أو يطالِبه بالكثير أو ينتقم أو يثأر». هم في واقع الأمر يرون محبة الله متنافية مع عدالته، ويبدو لهم أنّ الله لابد أن يكون إما هذا أو ذاك. وينقلون لك إحساساً غامضاً غير محدد بأنّ الله كان فيما سلف منتقماً، ثم همدت ثائرته، فصار متساهلاً يقبل الكل؛ أي أنه صار أباً للكون كله. وهكذا جرّدوا الله من ذاته المتوازنة ووصفوه بصورة لا تشعرهم بالتهديد. هم يقبلون السماء، وينكرون وجود الجحيم. ويستشهدون بأشهر آيات الكتاب المقدس «لاَ تَدِينُوا» وكأن الله فقد القدرة على التمييز بين الصواب والخطأ. لكن الله محبة، بقدر ما هو قدوس، عادل، ديّان، وحق. هو الإله الذي بدافع محبته للبرّ يجيء «فِي نَارِ لَهِيبٍ، مُعْطِيًا نَقْمَةً لِلَّذِينَ [أي منتقماً ممّن] لاَ يَعْرِفُونَ اللهَ، وَالَّذِينَ لاَ يُطِيعُونَ إِنْجِيلَ رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ» (٢تسالونيكي ١: ٨). إن اختيارنا جانباً واحداً من جوانب ذات الله كمثال نحتذي به، دون الجانب الآخر، ليس من النزاهة في شيء.

اللّه يعـــاقب أولاده

أولئــك الذيــن يختــارون عــدم اســتعمال العصــا، بدافــع التســامح والـبر الذاتـي، هـم في الواقــع يدينــون الله. «لأَنَّ الَّــذِي يُحِبُّــهُ الــرَّبُّ يُؤَدِّبُـهُ، وَيَجْلِـدُ كُـلَّ ابْـنٍ يَقْبَلُـهُ. إِنْ كُنْتُـمْ تَحْتَمِلُـونَ التَّـأْدِيبَ يُعَـامِلُكُمُ اللهُ كَالْبَنِينَ. فَأَيُّ ابْنٍ لاَ يُؤَدِّبُـهُ أَبُـوهُ؟ وَلكِـنْ إِنْ كُنْتُـمْ بِـلاَ تَـأْدِيبٍ، قَـدْ صَارَ الْجَمِيعُ شُرَكَاءَ فِيـهِ، فَـأَنْتُمْ نُغُـولٌ لاَ بَنُـونَ» (عـبرانيين ١٢: ٦-٨).

ثم يقـول الوحـي أيضاً إنّه يؤدّبنا «لأَجْـلِ الْمَنْفَعَـةِ، لِكَـيْ نَشْـتَرِكَ فِـي قَدَاسَتِهِ» (عبرانيين ١٢: ١٠). ما أبلـغ هـذا التعبـير! ليـس عنـد الله بنـون يتـهرّبون مـن التـأديب - «قَـدْ صَـارَ الْجَمِيـعُ شُـرَكَاءَ». وهـل تُـراه كـفّ عــن محبــة مَــنْ أدّبــهم؟ علــى العكــس، إن المحبــة كــانت الدافــع للتـأديب. فمـن خـلال التـأديب وحـده يستطيع بنــوه أن يشـاركوا في قداسته مشاركةً كاملةً. وهـو إنما يصنع ذلـك «لأَجْـلِ الْمَنْفَعَـةِ».

«وَلكِنَّ كُلَّ تَـأْدِيبٍ فِـي الْحَـاضِرِ لاَ يُـرَى أَنَّـهُ لِلْفَـرَحِ بَـلْ لِلْحَـزَنِ... » (عــبرانيين ١٢: ١١). تـأديب الله هــو مثــل «علقــة» مؤلمــة. إن «آبَــاء أَجْسَادِنَا ... أَدَّبُونَـا أَيَّامًـا قَلِيلَــةً حَسَــبَ اسْتِحْسَـانِهِمْ» (عــبرانيين ١٢: ٩، ١٠). إنّ الوحـي ليـس فقـط يُبيـح «الجلـد» الجسـدي، بـل يرفـع شـأنه كوسيلة للقداسة - طالما تم إيقاعـه لمنفعـة الولـد.

هنا يوصـف التـأديب كعلامـة علـى الحـب: «لأَنَّ الَّـذِي يُحِبُّـهُ الـرَّبُّ يُؤَدِّبُـهُ». وإذا انعـدم التـأديب، لم يكـن ذلـك دليـلاً علـى عـدم الحـب فقط، بل علـى كوننـا «نغـولاً» أيضـاً [النغـل هـو ابـن غـير شـرعي]. مـن

هنا نرى كيف ينبع التأديب مع عمق محبة الله لنا. على ضوء هذه الحقيقة نفهم آية أمثال ١٣: ٢٤: «مَنْ يَمْنَعُ عَصَاهُ يَمْقُتِ ابْنَهُ، وَمَنْ أَحَبَّهُ يَطْلُبُ لَهُ التَّأْدِيبَ».

إذا كانت محبة الله تتجلّى فيما يوقعه من «جَلد»، أفلا نحب نحن أولادنا بما يكفي لتأديبهم للقداسة؟ سمعت ذات مرة أحد الشبان المراهقين يقول: «لو كان والداي يحبانني لأدّباني».

أخبرتنا إحدى الأمهات مؤخراً أن بعد تأديب منتظم لأطفالها باستعمال العصا، شكر أحد أولادها الله على أنّ أمه أم طيبة. ولا عجب، فإن ازدياد العلقات قلّل العصيان، فزاد انسجام الطفل مع أمه. ففسّر هو ذلك بأنّ أمه أصبحت طيبة.

٥ - فهم احتياجات الطفل

إنّ طبيعة الطفل تجعل استخدام العصا عنصراً لا غنى عنه في تدريب الطفل وتأديبه. دعونا هنا نلّخص التعليقات السالفة على طبيعة الطفل (الفصل الثاني)، ثم نستخلص بعض التطبيقات العملية الهامة.

تلخيص: «زَاغَ الأَشْرَارُ مِنَ الرَّحِمِ. ضَلُّوا مِنَ الْبَطْنِ، مُتَكَلِّمِينَ كَذِبًا» (مزمور ٥٨: ٣). سرعان ما يتعلّم المولود، من خلال نزعته الفطرية نحو الطعام والعِناق والراحة الجسدية، أنّ افتعال احتياجات مزيّفة يعود عليه بالتدليل وإشباع الرغبات. لكن بسبب قدرته الناقصة على التفكير السليم، لا يحسب الله كذبه خطية.

«فَمَنْ يَعْرِفُ أَنْ يَعْمَلَ حَسَنًا وَلاَ يَعْمَلُ، فَذلِكَ خَطِيَّةٌ لَهُ» (يعقوب ٤: ١٧). «الْخَطِيَّةَ لاَ تُحْسَبُ إِنْ لَمْ يَكُنْ نَامُوسٌ» (رومية ٥: ١٣). لأن الأحداث لا يعرفون «الْخَيْرَ وَالشَّرَّ» (تثنية ١: ٣٩)، إذن هم يُعتَبرون غير مسؤولين عن انتهاكهم للناموس. مع ذلك، يقع الأطفال في الكذب، وتصدر عنهم كثرة من الأفكار والأعمال الأنانية الأخرى، تتحوّل لدى بلوغهم سنّ «معرفة الخير والشر» إلى خطية محققة. ومع أنهم لا يُؤاخَذون الآن، سيحين الوقت الذي يصحو فيه الضمير، من خلال تطور الفهم، ويستحقون اللوم على تلك الأشياء.

ولدك موضوع في جسد عاجز. والنزعات المعطاة من الله نحو إشباع الاحتياجات والرغبات الجسدية تتسبب في الوقوع في الشهوات باستمرار وبلا انقطاع. إنّ النزعة ذاتها ليست خطية، فشهوة الجسد أمر طبيعي (تثنية ١٢: ١٥). لكن «إِذَا انْجَذَبَ وَانْخَدَعَ مِنْ شَهْوَتِهِ»، ثم حبلت الشهوة فرصة، فإنّها «تَلِدُ خَطِيَّةً» (يعقوب ١: ١٤، ١٥).

لا يمكنكم منع أولادكم من حياة الامتحان التي يجلبها هذا الجسد (من جلد ودم وعظام، مع كل أهوائه وحاجاته). لكن تقدرون أن تدربوهم على الضوابط اللازمة لكي لا يستسلموا لحياة أنانية منغمسة في الشهوات. والعصا هي أداة التنفيذ الإلهية: «اَلْعَصَا وَالتَّوْبِيخُ يُعْطِيَانِ حِكْمَةً...» (أمثال ٢٩: ١٥).

وليفهم القاريء أننا لا نقول بأن تدريب الطفل يُكسبه الاختبار المسيحي، إنما نقول بتطوير الذهن والجسد إلى أرقى تهذيب

طبيعي ممكن. وذلك إنما يؤازر الروح القدس في تبكيتهم على الخطية، فيجعلهم يدركون حاجتهم إلى مخلّص. إننا هنا بصدد الحديث عن الاستخدام الشرعي للشريعة.

الأحاسيس السلبية

إن فهمنا لتطور الطفل يساعدنا أن نفهم احتياجاته.

من ذلك أن التمادي في إشباع الشهوات وعدم ضبط النفس ينتجان عدم الرضا. والطفل غير المؤدب يكون متزعزعاً وغير مطمئن. وعدم ضبط النفس أيضاً يسبب الغضب، وكذلك العجز عن تنفيذ الإرادة يقود الشخص إلى الرثاء على ذاته. والشهوة غير المكتملة تجعل الإنسان مضطرباً لا يقر له قرار. والإحساس بظلم الآخرين يولّد المرارة. لذلك يكمن في الطفل والراشد على السواء احتياج فطري للتوجيه والتحكم. وإلاّ فقد الإنسان غايته وهويته. «الصَّبِيُّ الْمُطْلَقُ إِلَى هَوَاهُ يُخْجِلُ أُمَّهُ» (أمثال ٢٩: ١٥).

وبتطور إحساس الطفل بما ينبغي عليه عمله، يسبب أي خرق لمقاييسه الخاصة إحساساً بالذنب. والإحساس بالذنب إن هو إلاّ اتهام لا إرادي للذات، إذ تعرف الذات ما بداخلها وتنفر مما تراه. وأصغر طفل يعلم أنّه فشل فيما يجب عليه عمله، يعاني من الذنب. ومع أنّ ملكات الطفل النفسية لا تعمل بالكامل، إلاّ أنّ الطفل الذي يخالف ضميره، يتثقّل بالذنب والاشمئزاز من الذات.

والطفل المُثّقل بمثل هذا الذنب، إنما يزداد خِسّة ودناءة عند تأنيبه أو إحراجه أو السخرية منه أو حرمانه من امتياز ما أو إجباره على ملازمة حجرته أو الجلوس في الركن أو ضربه ضرباً غير مُبَرِّح أو تطويحه هنا وهناك مع ما يصحب ذلك من تهديدات. كل هذا في الواقع إنما يثير غيظ الطفل. ويكون الوالد قد كبّر المشكلة بإحداثه تلك الردود. وقد يُجبَر الطفل بفعل إحدى هذه الوسائل على الرضوخ مؤقتاً، لكن قلبه النجس يظل ثابتاً على شرّه.

الإحساس بالذنب

لذلك، في سبيل فهم طبيعة الطفل، تلزم معرفة وجود الإحساس بالذنب عند تطبيق التأديب. فالعلقة (سواء كانت بالكرباج أو العصا أو الحزام أو الخيزرانة) لا غنى عنها لإزالة الإحساس بالذنب في طفلك. إنّ ضميره (طبيعته) ذاته يطالب بالعقاب.

أغلبية المشاكل النفسية أصلها الذنب. ويتكوّن الإحساس بالذنب عندما يحكم الإنسان على نفسه أنّه يستحق اللوم. وقد يقتنع شخص ما دون مناسبة بخطئه، لكن إحساسه بالذنب يجرّمه.

من ثمّ يرى الوالدان اللذان يُخجِلان أو يُذِلاّن أطفالهما، لإجبارهم على التمسك بالسلوك الصحيح، قوة الإحساس بالذنب على الضمير في منع بعض الأعمال. لكن الطاعة المُقدّمة بهذه الطريقة إنّما تعمّق الإحساس الزائف بالذنب، مما يُبعِد الطفل أكثر فأكثر عن التوبة الحقيقية والشفاء.

الذنب في حد ذاته لا يُحدِث التوبة والإصلاح، إذ أنه غير موجّه نحو الأعمال التي تستحق اللوم. على العكس، النفس المذنبة مستعبدة لكل إغراء. الذنب يُبعِد المذنب عن عوامل ضبط النفس المعتادة، لأنّ اليأس الذي ينتج عن الذنب يُبطِل عمل الدوافع الحميدة التي تدفع الإنسان إلى عمل الصالح، ثم تقل توقّعاته بالنجاح بسبب الآلام التي شعر بها في مرات الفشل. فيُنقِص الذنب احترام الإنسان لذاته إلى الحد الذي لا يتوقع عنده سوى الفشل. وهذا الواقع حدا بعلماء النفس المعاصرين إلى تجريم الإحساس بالذنب واعتباره أُسّ الفساد. لكن معالجة الذنب تشبه معالجة وجع الأسنان، لا الأسنان نفسها. أي أنّ الذنب ليس هو المرض، بل العرض.

أولئك الذين يعانون من الذنب المترتّب على سوء أفعالهم يُنظَر إليهم على أنّهم يسببون الأذى أو الألم لأنفسهم. وهذا الإيذاء الذاتي محاولة منهم لمداراة الألم. لكنّ قانون القصاص غير المكتوب يسري في تفكير الإنسان وكيانه. وبصرف النظر عن العمر أو الدين أو التعليم أو الفلسفة، يعلم الجميع بالبديهة أنّ ارتكاب الخطأ يستحق العقاب. وهذا القانون ينطبق أيضاً على أولئك الذين يكرّسون حياتهم لإنكار وجود الضّمير (مثل أتباع فرويد). فمع استيقاظ الوعي في الطفل، يدرك تلك الحال ويسلّم بها، وتظل راسخة فيه باعتبارها من المُسلَّمات الأساسية في الحياة.

لاحظت ولدا صغيرا أمسك وهو يرتكب ذنبا، فأدار ظهره لوالديه، ثم سحب حفاضته إلى أسفل، وضرب نفسه ثلاث صفعات على مؤخرته. لكن مع طرافة هذا العرض وظرفه، لم يكن ذلك عقابا مقبولا.

العصا، لا الانزواء في الركن

أحد الأولاد الصغار لا يتلقى تأديبا عندما يثور غاضبا أو يعصى الأوامر، ويبدو أنه يستلذ بفعل كل ما هو ممنوع. وكلما عصى، ازداد وضاعة وإحساسا بالذنب. وعلى سبيل العقاب، يتم قرصه أو إلزامه بالجلوس في أحد الأركان، أو يوضع في غرفة مظلمة. وحينما يخرج، يثور غضبا أكثر من ذي قبل، ولا يمكن لأحد أن يعترض طريقه.

ذات يوم وهو جالس في الركن، سمع يقول: «إن أحدا لا يحبني. أنا شرير كإبليس. ولا أفعل الصواب أبدا». هذا الفتى يتعود منذ الصغر على احتلال مكانه في زنزانة بالسجن. الغرف والأركان المظلمة إنما تولد ظلمة في النفس. والغرفة الفارغة لا تنتج في الطفل «المقموص» إلاّ ذنباً وغضباً. العصا والتوبيخ وحدهما يقومان بالإصلاح. يعلم الأطفال بطريقة ما أنّ العصا هي عقابهم المستحق.

بركة الذنب

الذنب جزء لا يتجزّأ من ذاتنا الطبيعية الأدبية. بدونه نشبه كاشف دخان بدون صفّارة إنذار. لكن الذنب ليس سوى وسيلة

إلى غاية، أي أنّه حالة مؤقتة. إنّه وجع في النفس، مثلما تلمس شيئاً ساخناً فيوجعك، والقصد منه إنذارنا لنغيّر أفعالنا. الإحساس بالذنب بركة كبيرة، ودليل على الحياة، واستجابة صحية. لا تحاول استئصال الذنب بالمراوغة والتلاعب في المعيار الأخلاقي. حافظ على المعيار عالياً، وليكن شخص المسيح معيارك. وفيما هم غير قادرين على الفهم بعد، اسمح لهم أن يحسّوا بالذنب، ثم بدِّده واقشعه بالعصا. وسيحين الوقت الذي يسهل عليهم فيه استيعاب مبادئ الصليب.

عصا التعزية

هل تعزّي طفلك بالعصا؟ إذا لم ترَ في العصا تعزية لطفلك، فقد فاتك القصد منها. «عَصَاكَ وَعُكَّازُكَ هُمَا يُعَزِّيَانِنِي» (مز ٢٣: ٤). «إِنْ تَعَوَّجَ أُؤَدِّبْهُ بِقَضِيبِ النَّاسِ...» (٢صموئيل ٧: ١٤). «أَفْتَقِدُ بِعَصًا مَعْصِيَتَهُمْ، وَبِضَرَبَاتٍ إِثْمَهُمْ» (مز ٨٩: ٣٢).

وجد داود النبي تعزية في التأديب الإلهي، وهو المُختبِر عصا تأديب الله الذي عاقبه على تعدّيه. لقد تعزّى بالعصا، إذ تأكدت له سيطرة الله واهتمامه ومحبته وعهده معه. كذلك يحتاج الأطفال أن يعلموا أنّ أحداً ممسك بدفة الأمور.

«أَدِّبِ ابْنَكَ لأَنَّ فِيهِ رَجَاءً، وَلكِنْ عَلَى إِمَاتَتِهِ لاَ تَحْمِلْ نَفْسَكَ» (أمثال ١٩: ١٨). استعمال العصا كما ينبغي يمنح رجاءً جديداً للطفل المارد. وهنا يحضنا الكتاب المقدس على ألاّ نتأثر ببكائهم

فنخفف العقاب، وألاّ نبالغ في عقابهم إلى حد الإماتة. لا يجب على الوالد السماح لمشاعره بالتدخل وإعاقة التنقية التامة.

الطفل التي لم يُؤدَّب لا يقرّ قراره ولا تهدأ نفسه. وليس هذا فقط، بل يثير الشغب والاضطراب في البيت كله. «أَدِّبِ ابْنَكَ فَيُرِيحَكَ وَيُعْطِيَ نَفْسَكَ لَذَّاتٍ» (أمثال ٢٩: ١٧).

حدثت معجزة هنا الليلة

جاءنا زوجان مؤخراً لهما خمسة أولاد طلباً للنصيحة. أمّا الزوجة فقد صارت لا تستجيب لزوجها وتحتدّ على أطفالها الثلاثة الذين دون سنّ الخامسة. قالت لنا من غير تفكير: «أشعر أحياناً أني سأُجَنّ. أنا لا أريد المزيد من الأطفال».

مكث الزوجان في بيتنا يومين خضعا فيهما للفحص. وبعد قليل من الإرشاد، عادا إلى بيتهما وأجريا محاولة. بعدها بأسبوعين، حضرا اجتماعاً في الكنيسة حيث كنت أعظ. وجلس معهما أولادهما جميعاً على المقعد دون حراك. ثم هتف الأب بعد ذلك، لما استولى عليه العجب: «حدثت معجزة هنا الليلة، وأحد لم يلاحظها». فتلفّتُّ هنا وهناك علّي أرى أحداً شُفِي من شلل أو نحو ذلك، فإذا به يكمل: «جلسنا أثناء الخدمة بطولها ولم يصدر عنهم أي صوت! أنا لا أكاد أصدّق!». بعد شيء من التدريب والتدريب، أعطوهما الأطفال راحة ولذة. علاوة على ذلك، بات واضحاً على

الأطفال أنهم أسعد حالاً. قالت الأم لاحقاً: «أنا الآن على استعداد لإنجاب المزيد من الأطفال».

العصا السحرية

لا تفكّروا في العصا كسلاح دفاعي أو استعراض للقوة؛ إنما فكروا فيها كأنّها «عصا سحرية». يندهش منها الوالدان أول مرة يريان تأثيرها المُصلِح. تصوّروا ولداً في أي مرحلة سنية، تعيساً، كثير الشكوى، «يَتَفَتوَن» على غيره من الأطفال. كل ما تراه عند النظر إليه هو هّوة فارغة .. فشلت معه كل وسائل الإصلاح. يشعر وكأنه يعيش في أرض أجنبية محتلة، فيحيك المؤامرات مترقّباً يوم التخلّص من نير العبودية. فيزداد سوءاً، سواء رشوته أو أنّبته أو هددته. إنّ التهاون في استعمال العصا مع مثل ذلك الولد يخلق منه نازيّاً. إنّي لا أزال أقف مندهشاً من قوة تلك العصا الصغيرة. بعد شرح موجز لسوء تصرّفه ورداءة موقفه، وضرورة المحبة، استعمل العصا بصبر وهدوء على مؤخرته. بطريقة ما، يتحوّل السم بعد ثماني أو عشر لسعات إلى رضا ومحبة فياضة. فيصبح العالم مكاناً جميلاً، ويخرج طفل جديد إلى حيّز الوجود. إنّ ذلك يجعلنا – نحن الكبار– نحملق في العصا في دهشة، ونحاول أن نرى تلك القوة السحرية الكامنة فيها.